

## المحاضرة التاسعة: النظرية السياقية نشأتها وتطورها

### أهداف المحاضرة:

#### الهدف الخاص:

- أن يتعرف الطالب على المنطلق التأسيسي للنظرية السياقية

#### الأهداف الإجرائية:

- أن يتعرف على مؤسسي النظرية السياقية
- أن يستنتج الأسس المنهجية للنظرية.

## تمهيد:

لقد أصبح البحث عن المعنى شغل علماء اللغة ولم يتوقف ذلك عند الحدود النظرية بل حاول الباحثون رسم مبادئ تفتح مجال التطبيق والتحليل الممنهج إذ لم يبق الاهتمام منصبا على نوعية العلاقة بين اللفظ والمعنى فحسب إنما تجاوزه إلى الوظيفة الحيوية التي يؤديها المعنى داخل النظام اللغوي الثقافي العام، ولأنّ الكلمة حال انعزالها عن تركيبها تحمل معاني متعددة معجميا فإنّ الدرس الدلالي الحديث انفتح على قواعد تضبط المعنى الدلالي للكلمة من خلال إلزامها بحمل قيمة خاصة تعبّر عن معنى واحد وذلك بتسويقها وربطها بعالمها اللغوي والاجتماعي.

### 1. النظرية السياقية contextual theory :

لم يعد المعنى الدلالي يُفهم كما سبق من التتالي اللفظي فحسب بل يُفهم بوصفه تفاعلا بين النظامين الداخلي والخارجي، أي؛ حينما يُنظر إليه من زاوية تتابع العناصر اللغوية ومن زاوية المعطيات المقامية، وهذا ما جاءت به "النظرية السياقية" التي تعد أكثر التصاقا بعلم الدلالة وأدق منهجية وضبطا للأسس العلمية الموضوعية في الوصول إلى المعنى الأساسي حذفاً للمعاني الهامشية التي يمكن أن تلصق بالكلمة حال إفرادها، هذه النظرية الحديثة تبلورت أسسها على يد اللغوي البريطاني "فيرث" firth لإعادة الاعتبار للشقّ الثنائي الدّي أهمله البنيويون في الدّراسات اللغوية وهو الجانب الاجتماعي، وهنا يلزمنا الحذر في تحديد مفهوم المعنى الدلالي اجتماعيا الذي لا يخرج عن نطاق الوصفية.

فلئن كان البنيويون قد ركّزوا على النّظام الشكلي للغة بحكم الرؤية المنهجية الخاصة معتبرين التّحليل اللّغوي الدّي يجري على المستويات المعروفة ملتزما بالقواعد الدّاخلية التي تحكمه فإنّ "فيرث" قد فتح هذا النظام وربطه بالعالم الخارجي مركزا على ضرورة مراعاة الظروف غير اللّغوية في العملية التحليلية، ذلك أنّ اللغة ليست مجرد نظام لغوي فحسب إنّما هي تعبير عن الخارج الاجتماعي والثقافي، معتبرا أيّ كلمة أو جملة خارج هذا الإطار مجرد أصوات متتالية لا ماهية لها تكشف عن معنى احتمالي لا أساسي. لذا ما أضافه يعد قفزة جريئة لتوسيع مجال الدّرس اللّساني واهتمامه بالسياق الفعلي للغة أو ما يصطلح عليه بالمقام والاهتمام بهذا الجانب لن يكون على حساب "السياق اللّغوي Linguistic context" بل وازن بين الطرفين؛

فكما تدرس الظروف المحيطة بالّلغة، تدرس أيضا المستويات اللّغوية الصوتية والمعجمية والصرفية والنحوية والدلالية وإن كان قد عبّر عنها بالوظائف ذلك أنّه لكل عنصر منها وظيفة حيوية في السّياق ومن ثمّ جميع هذه الوظائف تخضع للتحليل لانتمائها إلى نظام المعنى الشامل.

كما نجد عددا من الباحثين يتفقون أنّ "فيرث" في تأسيسه للنّظرية السياقية قد استفاد من النتائج التي قدّمها عالم الاجتماع والأجناس "مالينوفسكي Malinowski" الذي رأى بأنّ الكلمات وليدة بيئتها وإن عزلت عنها تصبح مهمة المعنى. لذا، نبّه على ضرورة الأخذ بعين الاعتبار الظروف الاجتماعية التي تساهم في حياة هذه الكلمات وقد اعتبر معنى الكلمة هو الوظيفة التي تؤديها في سياقها الخاص، وهكذا أصبح المعنى الدلالي لا يعبر فقط عمّا تظهره الكلمة أو النظام اللّغة عموما إنّما يعبر عن الحياة الاجتماعية وعن الأبعاد الثقافيّة لأمة بأكملها لأنّ اللّغة هي روح المجتمع وثقافته، وكشف خاص عن التّصور للعالم.

وبناء على هذا اعتبر "فيرث" الوحدة اللّغوية الأساسيّة المعنوية بالتحليل هي الجملة يقول الباحث "عبد الفتاح البركاوي": "لقد حاول فيرث وهو يصوغ نظريته السياقية أن يطبّق أفكار مالينوفسكي وقد ذهب مثله إلى أنّ التّفوهات اللّغوية (كلمات أو عبارات أو جمل) إنّما تؤدي وظيفتها في إطار موقف خارجي، كما أنّ عناصر الوحدة اللّغوية لا يعمل أيّ منها إلّا في ضوء علاقته بالعناصر الأخرى. والمراد بالوحدة اللّغوية هنا الجملة وليست الكلمة... ذلك أنّ الجملة هي... وحدة اتّصال في الموقف الخارجي للسياق"<sup>1</sup>، ولعلّ العناية بالجملة كوحدة أساسية لتحليل اللغوي يعود إلى كون الدراسة السياقية في أصلها تهتم بالكلمة حال تركيبها لا حال انعزالها ومن خلال ذلك تتحدد وظيفتها الدلالية بناء على تتاليها مع قريناتها في الجملة من جهة وقيمتها اجتماعيا من جهة ثانية

ولفت الباحث "محمد محمد يونس علي" أنضارنا إلى الخواص الجوهرية للنّظرية السياقية لدى "فيرث" في كون المعنى لديه وظيفة في سياق وهذه الوظيفة الدلالية لا تتأتّى إلّا بعد أن تتجسد المقولة في موقف فعلي معيّن وهو أمر لا يتحقق إلّا في سياق الموقف، ولأنّ منهج "فيرث" عملي في أساسه فإنّه يولي أهمية بالغة -كما يذكر الباحث- "للتّوزيع السّياقي contextual distribution" المحكوم بمنهج الإبدال الذي يقتضي أنّ الكلمة ما هي إلا مقابل إبدال معجمي لكلمات أخرى يمكن أن تحلّ محلها في ذات السّياق فمعناها يتحدّد بمقدار ما يُحدثه هذا المعنى من تغيير، وهي توافق رؤية "دي سوسير" في مجال العلاقات الاستبدالية

<sup>1</sup> عبد الفتاح البركاوي، دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، دراسة تحليلية للوظائف الصوتية والبنوية والتركيبية في ضوء نظرية السياق، ص ص 48، 49.

الانتلافية التي تدخل فيها العناصر اللغوية مع قريناتها عموديا وأفقيا.<sup>2</sup> كما ينشر "أحمد مختار" إلى هذه النقطة بقوله: "وعلى هذا فدراسة معاني الكلمات تتطلب تحليلا للسياقات والمواقف التي ترد فيها، حتى ما كان منها غير لغوي. ومعنى الكلمة - على هذا يتعدد تبعاً لتعدد السياقات التي تقع فيها، أو بعبارة أخرى تبعاً لتوزيعها اللغوي Linguistic distribution"<sup>3</sup>

كما يوضح ذات الباحث أنّ الفلاسفة واللغويين قد رحبوا بالمنهج السياقي واعتبره "Ulmann" خطوة تمهيدية للمنهج التحليلي حيث رأى أنّ المعجمي بعد أن يقوم بجمع عدد من السياقات الممثلة التي ترد فيها كلمة معينة وحينما يتوقف أيّ جمع آخر للسياقات عن إعطاء أيّ معلومات جديدة يأتي الجانب العملي إلى نهايته، ويصبح المجال مفتوحاً أمام المنهج التحليلي، ومن ثمّ عملية جمع سياقات الكلمة تكون وصفية في أصلها إذ تستند على الملاحظة ومن ثمّ التحليل وبذلك خرج فيرث عن تحليل الحالات العقلية الداخلية وانصب اهتمامه على دراسة الكلمات في واقع عملي موضوعي، لذا أهم ميزة للمنهج السياقي أنّه يجعل المعنى سهل الانقياد للملاحظة والتحليل الموضوعي ويعالج الكلمات باعتبارها أحداثاً وأفعالا وعادات تقبل الموضوعية والملاحظة في الحياة الاجتماعية المحيطة بنا من جهة و أنّه لم يخرج في تحليله اللغوي عن دائرة اللغة من جهة ثانية.<sup>4</sup>

إنّ "فيرث" بهذا قد تجاوز البحث في طبيعة العلاقة بين اللفظ وركّز أكثر على صلة اللغة بالمجتمع لأنّها أساس التواصل بين أفرادها من جهة والإطار الاجتماعي هو الذي يمدّ الكلمات بمعانيها الصحيحة من جهة ثانية، السبب الذي جعله يشير إلى ضرورة تسييق الكلمة ووضعها في قلب الأحداث الخاصة حولها ليكون المعنى لديه وظيفة في سياق ومركب من الوظائف التي تؤدّيها العناصر اللغوية فعليا والمعنى الدلالي هو الإطار العام الذي تتفاعل فيه تلك الوظائف، لشدة التركيز على هذه النقطة نجده يضع المعنى مقاربا للوظيفة بشكل كبير، "إنّ مفهوم الوظيفة function هنا يكاد يتّحد مع مفهوم المعنى ومن ثمّ يصبح السياق اللغوي بناء متكامل من الوظائف التي تؤدّيها عناصر هذا السياق وقد انقسمت هذه الوظائف وفقا لمستويات اللغة المختلفة إلى الأقسام التالية: الوظيفة الصوتية و الوظيفة المعجمية، الوظيفة الصرفية، الوظيفة النحوية، الوظيفة الدلالية."<sup>5</sup>

<sup>2</sup> محمد محمد يونس علي، مدخل إلى اللسانيات، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، 2004، ص ص 78، 80.

<sup>3</sup> أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص 69.

<sup>4</sup> أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص 72، 73.

<sup>5</sup> عبد الفتاح البركاوي، دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، دراسة تحليلية للوظائف الصوتية والبنوية والتركيبية في ضوء نظرية السياق، دار الكتب 1991، ص 50.

